الباب العاشر

في انقسام الصبر إلى محمودٍ ومذموم

الصبر ينقسم إلى قسمين: قسم مذموم، وقسم ممدوح.

فالمذموم: الصبر عن الله وإرادته ومحبته، وسير القلب إليه، فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال على العبد بالكلية، وتفويت ما خلق له وهذا كما أنه أقبح الصبر فهو أعظمه وأبلغه فإنه لا صبر أبلغ من صبر من يصبر عن محبوبه الذي لا حياة له بدونه البتة. كما أنه لا زهد أبلغ من زهد الزاهد فيما أعد الله لأوليائه من كرامته مما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشر، فالزهد في هذا أعظم أنواع الزهد كما قال رجل لبعض الزاهدين وقد تعجب من زهده: «**ما رأيت أزهد منك**». فقال: «**أنت أزهد مني أنا زهدت في الدنيا وهي لا بقاء لها ولا وفاء وأنت زهدت في الآخرة فمن أزهد منا**» قال يحيى بن معاذ الرازي: «**صبر المحبين أعجب من صبر الزاهدين واعجباً كيف يصبرون**». وفي هذا قيل:

الصبرُ يُحْمَدُ في المواطنِ كلِّها ... إلا عليك، فإنه لا يُحْمَدُ

ووقف رجل على الشبلي، فقال: «**أيّ الصبر أشدّ على الصابرين؟**»، فقال: «**الصبر في الله**». قال: «**لا**» فقال: «**الصبر لله**». فقال: لا قال: «**فالصبر مع الله**». قال: لا قال: «**فأيش هو**» قال: «**الصبر عن الله**». فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تزهق.

وقيل: «**الصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء**» وقد أجمع الناس على أن الصبر عن المحبوب غير محمود فكيف إذا كان كمال العبد وفلاحه في محبته ولم تزل الأحباب تعيب المحبين بالصبر عنهم، كما قيل:

والصَّبْرُ عنك، فمذمومٌ عواقِبُه ... والصَّبرُ في سائرِ الأشياءِ محمودُ!

وقال آخر في الصبر عن محبوبه:

إذا لعب الرجال بكل شيء ... رأيت الحب يلعب بالرجال
وكيف الصبر عمن حل مني ... بمنزلة اليمين مع الشمال؟!

وشكا آخر إلى محبوبه ما يقاسي من حبه، فقال: «**لو كنت صادقاً لما صبرت عني**».

ولما شكوت الحب، قالت: كذبتني ... ترى الصبر عن محبوبه، كيف يصبر؟

فصل أنواع الصبر وأيها أكمل؟

وأما الصبر المحمود فنوعان: صبر لله، وصبر بالله. قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ (النحل: ١٢٧). وقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨).

وقد تنازع الناس أي الصبرين أكمل فقالت طائفة: الصبر له أكمل فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله فإن ما كان له فهو غاية وما كان به فهو وسيلة والغايات أشرف من الوسائل ولذلك وجب الوفاء بالنذر إذا كان تبرراً وتقرباً إلى الله لأنه نذر له ولم يجب الوفاء به إذا خرج مخرج اليمين لأنه حلف به، فما كان له سبحانه، فهو متعلق بألوهيته وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته، ولذلك كان توحيد الألهية هو المنجي من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده فإن عباد الأصنام كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الإلهية، وهو عبادته وحده لا شريك له لم ينفعهم توحيد ربوبيته.

وقال طائفة: الصبر بالله أكمل، بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ فأمره بالصبر والمأمور به هو الذي يفعل لأجله ثم قال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ (النحل: ١٢٧) فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التي تقدمتها أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة به والمعية الخاصة التي تدل عليها باء المصاحبة كقوله: «**فبي يسمع وبي يبصر وبي**

يبطش وبي يمشي» وليس المراد بهذه **«الباء»** الاستعانة فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي فإن مالا يكون بالله لا يكون بل هي **«باء»** المصاحبة والمعية التي صرح بمضمونها في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣) وهي المعية الحاصلة لعبده الذي تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوباً له فبه يسمع وبه يبصر وكذلك به يصير فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه ومن كان كذلك أمكنه الصبر له وتحمل الأثقال لأجله كما في الأثر الإلٰهي يعني: «وما يتحمل المتحملون من أجلي» فدل قوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ على أنه من لم يكن الله معه لم يمكنه الصبر وكيف يصبر على الحكم الأمري امتثالاً وتنفيذاً، وعلى الحكم القدري احتمالاً له، واضطلاعاً به من لم يكن الله معه، فلا يطمع في درجة الصبر المحمود عواقبه من لم يكن صبره بالله كما لا يطمع في درجة التقريب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله.

وهذا هو المراد من قوله: **«كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها»**. ليس المراد أني كنت نفس هذه الأعضاء والقوى كما يظنه أعداء الله أهل الوحدة وأن ذات العبد هي ذات الرب تعالى الله عن قول إخوان النصارى علواً كبيراً ولو كان كما يظنون لم يكن فرق بين هذا العبد وغيره ولا بين حالتي تقربه إلى ربه بالنوافل وتمقته إليه بالمعاصي، بل لم يكن هناك متقرب ومتقرب إليه ولا عبد ولا معبود ولا محب، ولا محبوب، فالحديث كله مكذب، لدعواهم الباطلة من نحو ثلاثين وجهاً تعرف بالتأمل الظاهر، وقد فُسّر المراد من قوله: **«كنتُ سمعَه، وبصره، ويده، ورجله»** بقوله: **«فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي»**. فعبّر عن هذه المصاحبة التي حصلت بالتقرب إليه بمحابه بألطف عبارة وأحسنها تدل على تأكد المصاحبة ولزومها حتى صار بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله. ونظير هذا قوله: **«الحجرُ الأسود يمين الله في الأرض فمَنْ صافحه وقبّله فكأنما صافح الله وقبّل يمينه»**.

ومثل هذا شائعٌ في الاستعمال أنْ ينزل إلى منزلة ما يصاحبه ويقارنه حتى

يقول المحب للمحبوب: أنت روحي، وسمعي وبصري. وفي ذلك معنيان:
أحدهما: أنه صار منه بمنزلة روحه وقلبه وسمعه وبصره.

والثاني: أن محبته وذكره لما استولى على قلبه وروحه صار معه وجليسه كما في الحديث: «**يقول الله تعالى: أنا جليس من ذكرني**» وفي الحديث الآخر: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**». وفي حديث: «**فإذا أحببت عبدي كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً**» ولا يعبر عن هذا المعنى بأتم من هذه العبارة ولا أحسن ولا ألطف منها وإيضاح هذه العبارة مما يزيدها جفاء وخفاء.

والمقصود: إنما هو ذكر الصبر بالله وأن العبد بحسب نصيبه من معية الله له يكون صبره وإذا كان الله معه أمكن أن يأتي من الصبر بما لا يأتي به غيره. قال أبو علي: «**فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته**». قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣) وهاهنا سر بديع وهو أن من تعلق بصفة من صفات الرب تعالى أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه والرب تعالى هو الصبور بل لا أحد أصبر على أذى سمعه منه. وقد قيل: «إن الله سبحانه أوصى إلى داود تخلق بأخلاقي، فإن من أخلاقي أني أنا الصبور». والرب تعالى يحب أسماءه وصفاته ويحب مقتضى صفاته وظهور آثارها في العبد، فإنه جميل يحب الجمال عفو يحب أهل العفو كريم يحب أهل الكرم عليم يحب أهل العلم وتر يحب أهل الوتر قوي، والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف صبور يحب الصابرين شكور يحب الشاكرين وإذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف فهذه المعية الخاصة عبر عنها بقوله: «**كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً**».

فصل [في الصبر مع الله]

وزاد بعضهم قسماً ثالثاً من أقسام الصبر وهو الصبر مع الله وجعلوه أعلى أنواع الصبر قالوا: هو الوفاء، ولو سُئل هذا عن حقيقة الصبر مع الله لما أمكنه أن يفسره بغير الأنواع الثلاثة التي ذكرت، وهي الصبر على أقضيته، والصبر على

أوامره والصبر عن نواهيه فإن زعم أن الصبر مع الله هو الثبات معه على أحكامه يدور معها حيث دارت فيكون دائماً مع الله لا مع نفسه فهو مع الله بالمحبة والموافقة فهذا المعنى حق ولكن مداره على الصبر على الأنواع المتقدمة وإن زعم أن الصبر مع الله هو الجامع لأنواع الصبر فهذا حق ولكن جعله قسماً رابعاً من أقسام الصبر غير مستقيم.

واعلم أن حقيقة الصبر مع الله هو ثبات القلب بالاستقامة معه وهو أن لا يروغ عنه روغان الثعالب هاهنا وهاهنا، فحقيقة هذا هو الاستقامة إليه وعكوف القلب عليه وزاد بعضهم قسماً آخر من أقسامه وسماه الصبر فيه، وهذا أيضاً غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة ولا يعقل من الصبر فيه معنى غير الصبر له وهذا كما يقال: فعلت هذا في الله وله كما قال خبيب:

وذلكَ في ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأْ يُبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ (العنكبوت: ٦٩) وقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ (الحج: ٧٨). وفي حديث جابر: **«أن الله تعالى لما أحيا أباه وقال له تمن قال: يا رب أن ترجعني إلى الدنيا حتى أقتل فيك مرة ثانية»**.

وقال ﷺ: **«ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد»** وهذا يفهم منه معنيان. **أحدهما**: أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره كما في الحديث «تعلمت فيك العلم». **والثاني**: أنه بسببه وبجهته حصل ذلك، وهذا فيما يصيبه بغير اختياره وغالب ما يأتي قولهم **«ذلك في الله»**. في هذا المعنى فتأمل قوله ﷺ: **«ولقد أوذيت في الله»** وقول خبيب: **«وذلك في ذات الإله»**. وقول عبدالله بن حزام: **«حتى أقتل فيك»** وكذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ (العنكبوت: ٦٩) فإنه يترتب عليه الأذى فيه سبحانه وليست **«في»** هاهنا للظرفية ولا لمجرد السببية وإن كانت السببية هي أصلها فانظر إلى قوله: **«في نفس المؤمن مائة من الإبل»**. وقوله: **«دخلت امرأة النار في هر»**. كيف تجد فيه معنى زائداً على السببية وليست **«في»** للوعاء في جميع معانيها فقولك: **«فعلت هذا في مرضاتك»** فيه معنى زيد على قولك: **«فعلته لمرضاتك»**. وأنت إذا قلت:

«**أوذيت في الله**» لا يقوم مقام هذا اللفظ كقولك: «**أوذيت لله**» ولا «**بسبب الله**» واذا فهم المعنى طوي حكم العبارة.

والمقصود: أن الصبر في الله أن أريد به هذا المعنى فهو حق، وإن أريد به معنى خارج عن الصبر على أقضيته وعلى أوامره وعن نواهيه وله وبه لم يحصل، فالصابر في الله كالمجاهد في الله والجهاد فيه لا يخرج عن معنى الجهاد به وله والله الموفق.

أما قول بعضهم: «**الصبر لله عناء والصبر بالله بقاء والصبر في الله بلاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء**». فكلام لا يجب التسليم لقائله لأنه ذكر ما سنح له وتصوره وإنما يجب التسليم للنقل المصدق عن القائل المعصوم ونحن نشرح هذه الكلمات:

أما قوله: «**الصبر لله عناء**» فإن الصبر لله بترك حظوظ النفس ومرادها لمراد الله وهذا أشق شيء على النفس وأصعبه، فإن قطع المفازة التي بين النفس وبين الله بحيث يسير منها إلى الله شديد جداً على النفس بخلاف السفر إلى الآخرة، فإنه سهل. كما قال الجنيد: «**السير من الدنيا إلى الآخرة سهل**» - يعني: على المؤمن - وهجران الخلق في جنب الحق شديد والسير من النفس إلى الله صعب شديد والصبر مع الله أشد.

وأما قوله: «**والصبر بالله بقاء**» فلأن العبد اذا كان بالله هان عليه كل شيء ويتحمل الأثقال ولم يجد لها ثقلاً فإنه إذا كان بالله لا بالخلق، ولا بنفسه كان لقلبه وروحه وجود آخر وشأن آخر غير شأنه إذا كان بنفسه، وبالخلق وبهذا الحال لا يجد عناء الصبر ولا مرارته وتنقلب مشاق التكليف له نعيماً، وقرة عين. كما قال بعض الزهاد: «**عالجت قيام الليل سنة وتنعمت به عشرين سنة**». ومن كانت قرة عينه في الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة.

وأما قوله: «**والصبر في الله بلاء**». فالبلاء فوق العناء والصبر فيه فوق الصبر له وأخص منه كما تقدم فإن الصبر فيه، بمنزلة الجهاد فيه وهو أشق من

الجهاد له فكل مجاهد في الله وصابر في الله مجاهد له وصابر له من غير عكس، فإن الرجل قد يجاهد ويصبر لله مرة فيقع عليه اسم من فعل ذلك في الله وانما يقع على من أنغمس في الجهاد والصبر ودخل الجنة وأما قوله: «**والصبر مع الله وفاء**». فلأن الصبر معه هو الثبات معه على أحكامه ولا يزيغ القلب عن الإنابة ولا الجوارح عن الطاعة فتعطى المعية حقها من التوفية كما قال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ (النجم:٣٧). أي وفى ما أمر به بصبره مع الله على أوامره.

وأما قوله: «**والصبر عن الله جفاء**». فلا جفاء أعظم ممن صبر عن معبوده وإلهه ومولاه الذى لا مولى سواه ولا حياة له ولا صلاح ولا نعيم إلا بمحبته والقرب منه وإيثار مرضاته على كل شيء فأي جفاء أعظم من الصبر عنه وهذا معنى قول من قال: «**الصبر على ضربين**»: صبر العابدين وصبر المحبين، فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً، كما قيل:

يَبين يوم البين أنَّ اعتزامَهُ على الصَّبْرِ من إحدى الظنونِ الكواذبِ

وقال آخر:

ولمّا دَعوْتُ الصَّبرَ بعدكَ، والبكا أجابَ البكا: طوعاً، ولم يجبِ الصبرُ!

قالوا: ويدل عليه أن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف: ٨٣) ورسول الله ﷺ إذا وعد وفى ثم حمله الوجد على يوسف والشوق اليه أن قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ (يوسف: ٨٤) فلم يكن عدم صبره عنه منافياً، لقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فإن الصبر الجميل هو الذى لا شكوى معه ولا تنافيه الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى فإنه قد قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦) والله تعالى أمر رسوله بالصبر الجميل وقد امتثل ما أمر به وقال: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي**» الحديث وأما قول بعضهم: إن الصبر الجميل أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري ما هو فهذا من الصبر الجميل لأن من فقده فقد الصبر الجميل فإن ظهور أثر المصيبة على العبد مما لا يمكن دفعه البتة وبالله التوفيق.

وزاد بعضهم في الصبر قسماً آخر وسمّاه: «**الصبر على الصبر**» وقال: هو أن يستغرق في الصبر حتى يعجز الصبر عن الصبر كما قيل:

صَابرَ الصبرُ، فاستغاث به الصبرْ فصاحَ المُحِبُّ بالصبر: صَبْراً

وليس هذا خارجاً عن أقسام الصبر وإنما هو المرابطة على الصبر والثبات عليه والله أعلم.

□

obeikandl.com